2

الباب الثاني

بداية الشتات

مفتاح المنزل

أعلنت بريطانيا إنهاء الإنتداب البريطاني على فلسطين في 14 أيار/مايو 1948. وفي عشية اليوم التالي أي في 15 آيار/مايو أعلن الصهاينة إنشاء دولة يهودية، والذي كان بداية التصعيد في ما سمي بحرب إنشاء دولة إسرائيل. وكان الجزء الرئيسي من هذه الحرب هو الإرهاب. وتعتبر مذبحة دير ياسين أحد رموزها.

وفي هذه الأيام أثرت هذه العمليات الإرهابية تأثيراً كبيراً على العديد من الناس. وعلى الرغم من النضال البطولي والتضحيات الضخمة للفلسطينيين، إلا أنهم أُجبروا على ترك فلسطين. وكان هناك العديد من الأسباب وراء ذلك، من بينها نقص السلاح.

❖ ❖ ❖

ولقد ألقت الحياة في ظل الإنتداب البريطاني بظلالها على الخيار الذي أخذه الشعب الفلسطيني، فلقد وضعت بريطانيا قيوداً شديدة على الفلسطينيين فيما يتعلق بحمل السلاح أو التدريب العسكري. بينما لم تألُ جهداً في إمداد اليهود بالأسلحة. ويكفي المثال التالي لتوضيح ما أعنيه: قد يُحكم بالإعدام على الفلسطيني إذا وجد في منزله رصاصة فارغة واحدة. وتم تنفيذ العديد من الإعدامات لهذا السبب!

❖ ❖ ❖

لقد كنت صغيراً في ذلك الوقت، إلا أنني كنت أُنصت بحرص لحكايات الكبار عندما كانوا يتحدثون عن الحرب والرصاص. كما كنت أسمع هذه القصص من والدي.

أخذ والدي يستمع للإذاعة أكثر من ذي قبل. حيث كانت تبث إضافة لأخبار الحرب العديد من الأغاني والأناشيد الوطنية الفلسطينية كما كانت بعض محطات الإذاعة العربية تثبت الأغاني الحماسية.

وفي ظل تلك الظروف كنت أحس بتوتر متزايد خصوصاً عندما أسمع أصوات إطلاق الرصاص، سواء كنت في المنزل أو بجواره. ونتيجة لوجود قاعدة عسكرية بريطانية بالقرب من مدينتنا، كان هناك مطار حربي صغير ملحق بمدينتنا. وكان يدور قتال على نطاق صغير في بيارات البرتقال الموجودة في الضواحي والمناطق المحيطة. والرملة مدينة صغيرة، ولم يكن فيها ما يحجب صوت إطلاق الرصاص.

إنتقلت أسرتي إلى منزل جدتي بحثاً عن الأمان بضعة أيام قبل أن تُجبر على ترك الرملة. و كانت الحياة في منزل جدتي أكثر أماناً لأن المنزل يقع في وسط المدينة. لقد قضينا بضعة أيام في غرفة واحدة من غرف منزل جدتي.

وقبل قليل من ظهيرة يوم من الأيام (فيما بعد عرفت أن هذا اليوم كان 30 حزيران 1948) ألبستنا والدتي على وجه السرعة، أنا وأخي وأُختيّ ملابس نظيفة وأنيقة كتلك التي نلبسها في المناسبات أو عند زيارة الأقارب وأيام الأعياد.

إلا أن ملابسنا لم تكن تتمشى مع الظروف السائدة، حيث كانت نظرات كل فرد بمن فيهم والديَّ تتسم بالصرامة. لم يقل والدي شيئاً، ولم يخبروني عن وجهتنا. شعرت بالرعب يعلو وجوه الناس، ولم يكن لديهم وقت لشرح الموقف العصيب.

وأذكر أن والدتي قامت بتنظيف المنزل بعناية أكثر من المعتاد، مما ولّد لدي الإنطباع بأننا سنغيب عن المنزل لمدة أسبوع. ثم قامت والدتي بإغلاق الشبابيك من الداخل بإحكام، ثم خرجت من المنزل وأحكمت إغلاق الباب الأمامي. كان مفتاح هذا الباب طويلاً وكبيراً، ولقد حافظ والداي على هذا المفتاح ومازالا يحتفظان به حتى الآن. ولا أعرف حتى الآن ما إذا كنا سنستخدم هذا المفتاح مرة أخرى أم لا؟!

أسرعنا الخطا في شوارع مدينة الرملة، ولا أذكر في أي إتجاه كنا نسير، ولكن بعد فترة قصيرة، وصلنا إلى ساحة متوسطة الحجم، وسرعان ما وجدت عدداً من معارفي وأقاربي وأصدقائي قد تجمعوا معنا هناك. ومع أنني لا أتذكر عدد الأفراد على وجه اليقين، إلا أنه كان هناك ما يقرب من 40 شخصاً، ينتمون إلى حوالي عشر عائلات. وكان أكثر من نصفهم أطفالاً في مثل عمري، وكان عدد النساء أكبر من عدد الرجال. وكان الجميع متوترين، كما كانت أعصاب والدي متوترة كذلك.

انتشرت الإشاعات عن أن الصهاينة كانوا يهاجمون المدن والقرى ويغتصبون النساء، ويعتبر ذلك عاراً على المسلمين والعرب وإهانة بالغة تفوق كثيراً عمليات الذبح أو القتل.

وخلال بضع دقائق كنا في الشاحنة متوجهين جهة الشرق في طريق ضيق يعلو منحدراً حاداً في الوادي. كان الجو لطيفاً، وكنا نلمح في الجبال أنواعاً مختلفة من العشب الأخضر والنباتات والأشجار والأزهار. وعلى سطح كابينة السائق، كان يجلس بعض الرجال يغنون أغاني وأناشيد وطنية حماسية عن فلسطين بصوت مرتفع جداً، وكنا نسمع رجع صداها.

❖ ❖ ❖

بندقية آلية بين يدي الأب

لم تحمل أي من العائلات أية حقائب. ولقد تكدس في الشاحنة كما قلت حوالي 40 شخصاً يجلسون متراصّين جداً. وكانت النساء يحملن أطفالهن الصغار على صدورهن. كانت أرضية الشاحنة مملوءة بالناس. وكان هناك العديد من الرجال يجلسون على سطح الشاحنة فوق كابينة السائق. وكانوا بين حين وآخر يتبادلون أماكن جلوسهم.

وعندما ترك والدي الرملة أحضر معه مدخراته المالية. أما والدتي فقد كانت تحمل بعض حليها الذهبية التي كانت تتزين بها يوم زفافها. إلا أنها لم تحضر معها كل مصاغها الذهبي. ولم يحمل والدي معه أي مستندات أو أوراق، كشهادات الميلاد أو سندات تسجيل الملكية أو ما يسمى بأوراق "الطابو".

وقد كان واضحاً أن كل فرد كان يظن أنه سيعود مرة أخرى إلى منزله خلال بضعة أيام، بعد الإحتماء المؤقت من عنف وإرهاب الصهاينة.

❖ ❖ ❖

كان عمي وأسرته قد عادوا إلى الرملة بعد 15 أيار1948 مباشرة، وكان قد نقل أسرته قبل بضعة أيام إلى قرية صغيرة بالقرب من الرملة هي قرية "النعانة"، وبعض من كانوا بالشاحنة كانوا قد رجعوا كذلك إلى الرملة بعد أن كانوا يحتمون في الضواحي الشرقية، ولذلك كانوا يعتقدون أنهم سيعودون مرة أخرى إلى المدينة خلال بضعة أيام.

كذلك قال والداي إن لديهما نفس التفكير، لذلك فإن والدي ترك محله شغّالاً ولم يغلقه، مع وجود بعض العمال الذين استمروا في أعمالهم هناك.

كنا محظوظين في عثورنا على شاحنة حيث كان ذلك صعباً ومكلفاً. طلب السائق مائة جنيه فلسطيني بالإضافة إلى أربعة تنكات من البنزين كل منها يحتوي على 20 لتراً كأجرة لنقلنا.وكان من الصعب الحصول على البنزين. قمنا بوضع تنكات البنزين على سطح الشاحنة. لقد تقاسمنا في ما بيننا الأجرة التي دفعت للسائق.

استمرت الشاحنة في السير عبر طرق جبلية. كان بعض الرجال يحملون أسلحة، كما أن والدي كان يحمل بندقية آلية صغيرة من نوع "ستين".

كان الهدف الرئيسي من حمل الأسلحة، ومسئولية من يحملون السلاح، هو تمكين النساء والأطفال من الهرب بأمان إذا لزم الأمر ذلك. ولهذا كان هناك عدد من الرجال يحملون البنادق الآلية.

وفي تلكم الأيام كانت وسائل الإعلام وخاصة الإذاعة تذيع تقارير عن مذبحة دير ياسين، لإظهار تعاطفها مع الفلسطينيين، إلا أنها ولّدت الرعب لديهم .

كانت الشاحنة قديمة، تسير ببطء عبر طرق جانبية غير معبدة، لتجنب هجمات اليهود من مستوطناتهم وما يحيط بها. استمر بنا الحال كذلك نتحرك من طريق ضيق إلى طريق آخر ضيق في الجبال محاولين تجنب الوقوع في كمين صهيوني.

وإستمرت الشاحنة في السير حتى وصلنا إلى رام الله، وهي مدينة تقع في وسط المنطقة الجبلية من فلسطين. وعند وصولنا ترك بعض الرجال الشاحنة لشراء بعض الأغذية والمأكولات كالخبز والخيار والجبنة البيضاء وغيرها. وبعد عودة هؤلاء الرجال إستمرت الشاحنة في التحرك شرقاً تجاه الأردن. عبرت الشاحنة جسر أللنبي على نهر الأردن. وصلنا إلى بلدة تسمى "الشونة"، وهي بلدة أردنية تقع مقابل مدينة أريحا الفلسطينية. ولم تكن الشونة تبعد كثيراً عن نهر الأردن.

❖ ❖ ❖

أول فصل في المأساة

كان الوقت حوالي الظهيرة عندما تركنا الرملة، ووصلنا إلى الشونة في المساء. وهنا في الشونة إشترينا من محل على جانب الطريق، بعض المأكولات كالجبنة والزيتون. و نصحنا صاحب المحل أن نستريح قليلاً. ووفر لنا غرفة خلف دكانه، حيث إستراحت النساء والأطفال في الغرفة، بينما إستراح الرجال في الفناء الخارجي لا تظللهم إلا السماء. من حسن الحظ أننا لم نكن نحتاج إلى أغطية أو بطانيات، حيث أن الجو كان حاراً جداً، حتى أثناء الليل. فوادي الأردن منخفض جداً، ويوجد بالقرب منه البحر الميت. ولذلك فهو يختلف كثيراً عن مدينة الرملة من النواحي الجغرافية والمناخية.

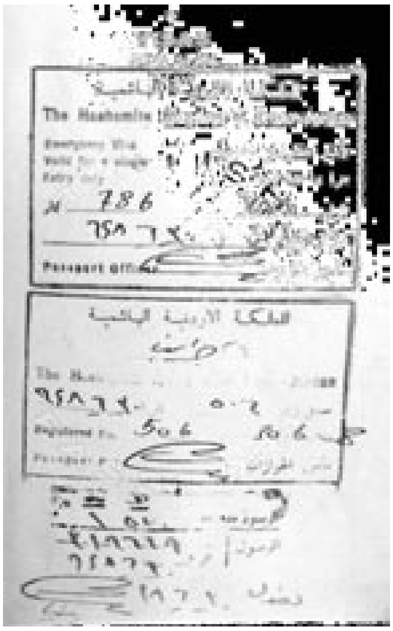

– بداية الشتات، تأشيرة دخول اضطرارية مؤرخة 1948/6/30.

دهشت كثيراً عندما أقمنا في هذا المنزل الموجود خلف الدكان. فلم يكن المنزل مبنياً لا من الطوب الإسمنتي ولا من الإسمنت، ولكنه مبني من اللّبِن الجاف

المصنوع من الطين والتبن. وكان السقف مكوناً من بضع قطع كبيرة من الخشب يعلوها صف يغطي كل السقف من البوص وفوقها طبقة جافة مصنوعة من الطين والتبن أيضاً. وكانت الجدران مغطاة بطبقة من الطين الجاف والتبن.

وهناك شئ آخر أدهشني، ففي المساء أزعجتنا حشرة البق المزعجة، وحيث أن البق التي كانت تتحرك وتزحف على الجدران فإن والدتي إستمرت في مراقبتها، وما أن تراها حتى كانت تقوم بإحراقها بلهب مصباح الكاز، ولم أكن قد رأيت أو أكن أعرف هذه الحشرة قبل أن أصل هنا. إن تعرضنا للبق كان أول فصل محزن من فصول مأساتنا، التي يمكن أن نطلق عليها التراجيديا الفلسطينية.

بقينا هنا لليلة واحدة فقط. إن معظمنا لم ينم جيداً هذه الليلة، فيما عدا بعض الأطفال. لم يكن ذلك بسبب البق فقط، ولكن بسبب قلقنا على ما يخبئه لنا المستقبل.

❖ ❖ ❖

وهنا أتذكر قصة أخبرنا بها والدي حديثاً، عن حادثة حدثت عندما إجتزنا الحدود الأردنية. لقد قام والدي ببيع بندقيته الآلية التي كان يحمي بها أرواحنا، لأنه سمع أنه غير مسموح له إجتياز الحدود وفي حوزته هذه البندقية. وكانت هناك مشكلة أخرى، إذ لم يسمح لنا بعبور نهر الأردن كلاجئين، فكل البالغين منا كان يحمل جواز سفر فلسطينياً صادراً عن سلطات الإنتداب

البـريطانيـة. كل منا حـصل على تـأشـيـرة دخـول إضطرارية ولمرة واحدة. وما زلنا نحتفظ بجواز سفر والذي المختوم بتاريخ دخولنا الأردن من فلسطين، وهو 30 حزيران/يونيو 1948. وعلى ذلك فلقد عبرنا الحدود حسب ما يقول الختم في جواز السفر ليس كلاجئين ولكن بتأشيرة عبور إضطرارية.

❖ ❖ ❖

الإحتماء بالمسجد

في الصباح التالي تحركت الشاحنة في إتجاه عمّان، حيث وصلنا أخيراً إلى منطقة "وسط عمّان". وكانت عمّان في ذلك الوقت صغيرة جداً لدرجة يصعب معه وصفها بالمدينة. لم يكن هناك العديد من الشوارع، وكانت المنازل تتركز في المنطقة الوسطى، وعلى سفوح الجبال السبعة المحيطة.

تقع عمّان في منطقة جبلية ترتفع حوالي 900 متر فوق سطح البحر. وكانت تقوم على سبعة جبال تطل على الوادي الذي يشكل وسط المدينة والجبال السبعة هي: جبل القلعة، جبل الحسين، جبل عمان، جبل اللويبدة، جبل النظيف، جبل الأشرفية، جبل الجوفة. إلا أنها اتسعت جداً فيما بعد وتجاوزت السبعة بمساحات كبيرة، وفي تلكم الأيام كان الناس يخشون السير بعيداً حول أطراف وجوانب تلك الجبال، إذ كان يقال أن هناك تعيش الذئاب والضباع. إلا أن هذه المنطقة كلها أصبحت الآن ما يسمى بوسط عمّان. ذلك أن عمّان إتسعت عشرات المرات عما كانت عليه في تلك الأيام.

توقفت الشاحنة عند جسر يقال له "جسر الحمّام" في وسط عمّان. وإسمه مأخوذ من وجود الحمّام الشعبي الوحيد قريباً منه. حيث قدم لنا أهل المدينة الشاي. وبسبب ذلك، وبسبب تجربتنا الحميمة في الشونة أول مدينة أقابلها في الأردن، تولد لدي إنطباع عارم بطيبة الشعب العربي. وكانت هذه أول مرة في حياتي أتقابل فيها مع غير فلسطينيين.

- مسجد السعدي في جبل اللويبدة.

عندما توقفت الشاحنة بدأ الرجال في البحث عن منازل للسكن في المدينة، إلا أن ذلك لم يكن سهلاً. وفي النهاية لم يجدوا سوى مسجد للإقامة فيه بصورة مؤقتة. كان يطلق على هذا المسجد إسم مسجد "اللويبدة". وهو إسم مشتق من أحد أسماء جبال عمّان السبعة، أو مسجد "السعدي" إشارة إلى إسم من بناه. كان هذا المسجد يتكون من طابقين، و به قاعة كبيرة. كان

يوجد بالدور السفلى نادٍ وحجرة متسعة. وإن كانت مساحتها من الصغر بحيث لا يمكن أن يطلق عليها قاعة.

وجدنا العديد من الأسر اللاجئة سبقتنا للعيش في هذا النادي، حيث كان هناك ما يقرب من 30 – 40 عائلة. وكان النادي مقسماً عن طريق تعليق البطانيات على الحبال. وكانت كل عائلة تعيش في ركن صغير جداً تحدده الحبال. لقد نمنا نحن الخمسة هناك أنا ووالدتي وأخي وأختاي. أما الرجال فكانوا ينامون في غرفة واحدة يعيش فيها مؤذن وقيم المسجد.

عشنا هناك، مع غيرنا من اللاجئين الآخرين، لبضعة شهور. وأتى غيرنا ليعيش بنفس المكان بعد أن تركناه. ولما كانت مخيمات اللاجئين لم تكن أقيمت بعد، فإن الناس كانوا يعيشون إما في المساجد أو المدارس أو غيرها من المنشآت المماثلة.

هل يمكنك أن تتصور كيف تكون الحياة والعيش بضعة أشهر تحت هذه الظروف؟ لم يكن من السهل الحصول على وجبة طعام أو أخذ حمام عندما نريد. كما كان الأطفال يتصايحون في كل أرجاء المكان إلا أننا كنا محظوظين بوجود سقف فوق رؤوسنا.

وكانت أكبر مشكلة هي المشكلة المالية. ويبدو أن بعض اللاجئين كان لديهم بعض النقود، بينما البعض الآخر لم يكن لديهم شئ. لقد أحضر والداي معهما كمية لا بأس بها من النقود. إلا أنها

كانت في سبيلها إلى الإنتهاء. وخلال هذه الفترة لم يكن والدي يعمل، لأنه كان متأكداً من أنه سيعود إلى الرملة غداً أو بعد غدٍ. كما ظن العديد من الناس نفس الشيء.

وبعد فترة بدأت والدتي في بيع حليها، وكنت أراها تذرف الدموع في هذا الوقت، فبعض هذه الحلى كان يمثل لها رمز زواجها. وكانت بعض هذه الحلى نفيسة بسبب وراثتها عبر الأجيال. لذلك كانت تمثل كنزاً لا يمكن تعويضه بأي مبلغ من المال.

كنت دائماً ألعب في الشارع أمام النادي. كانت ظروف الحرب في عقلي، إلا أن عالمي كان محدوداً بعدة مئات من الأمتار من حولي. وبسبب الظروف القاسية والحياة المريرة التي أعيشها ويعيشها أمثالي من الأطفال فقد اضطررت أن أشعر بأنني أكبر من سني. ومنذ أن كنت طفلاً في هذا الوقت، كان البالغون لا يقولون لي كثيراً عن الحرب، إلا أنني كنت أشعر بما كان يحدث من حولي.

لقد كنا محظوظين في الحصول على شاحنة ومغادرة الرملة قبل بدء المعركة الأخيرة، التي سبقت سقوط المدينة والتي بدأت في الأيام العشرة الأولى من شهر تموز/يوليو 1948 حيث وقع أهل مدينة الرملة، أو ما تبقى منهم في المدينة، تحت هجمات الصهاينة المتواصلة إلى أن استولوا على الرملة في 1948/7/12. وأجبروا

أهلها على مغادرة مدينتهم بعد ثلاثة أيام من إحتلالها مشياً على الأقدام إلى مشارف رام الله بعد أن ساقوا حوالي ثلاثة آلاف من رجالهم أسرى.

- ابو بكر وأم بكر.

❖ ❖ ❖